

الأسرى ومعاملتهم

"من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر النبوي"

الدكتورة شكران خربوطلي

قسم التاريخ

جامعة دمشق

الأسرى ومعاملتهم

"من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر النبوي"

الدكتورة شكران خربوطلي

قسم التاريخ

جامعة دمشق

مقدمة:

الموضوع الذي نتناوله بالبحث، له علاقة وثيقة بالحروب والقتال، فمنذ وجد الإنسان على وجه الأرض، أبى أن يذعن، أو يخضع لإنسان آخر، ثم تطور ذلك بتطور المجتمعات فاتخذ مظهراً جماعياً وأصبح قتالاً بين الأسر والجماعات، ثم أصبح حروباً بين الدول، وتناول جميع المرافق.

فالبينة الطبيعية والاجتماعية لدى عرب ما قبل الإسلام كانت مورثة للحروب، فقد كانوا يتنازعون على المرعى، وعلى المنهل، حيث حمل ضنك العيش في البادية القبائل على التناحر والتقاتل فيما بينها للحصول على الماء والكأ عماد الحياة هناك.

وكانت الحرب أحياناً لتتنازعهم على شرف أو رئاسة أو للحصول على غنيمة أو تعصباً لنصرة قريب ظالماً كان أو مظلوماً "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"^(١)، وذلك بسبب العصبية القبلية التي نشؤوا عليها وترعرعوا في ظلها.

ولربما ثارت الحرب بسبب ضغن قديم وقرته الصدور كحرب الفجار^(٢)، وغيرها من الحروب.

وتتجلى الحرب كما هي العادة على نتائج، ويعود المنتصر بالكثير من الغنائم منها الأسرى موضوع اهتمامنا.

إن قضية الأسرى هي قضية الإنسان وحقوقه وحرية ومصيره كله، وستظل كذلك طالما هناك حروب على سطح الأرض وطالما هناك بشر، وتكاد تكون ظاهرة الأسرى نتيجة حتمية لكل الحروب، وسيظل موضوع الأسرى هو الجانب الحيوي الذي تعقد حوله المؤتمرات، وتحتدم من أجله المناقشات.

وهذا الموضوع لأهميته جدير بالتصدي له لإلقاء الأضواء على المعاملة التي كان يلقاها الأسرى قبل الإسلام، وفي صدر الإسلام بعد أن تأسست الدولة الإسلامية الوليدة بعد الهجرة، والتي كان على رأسها الرسول (ص).

وبداية نحاول التعرف على معنى كلمة أسير.

"الأسير من أسر يأسره أسراً وإسارة: شذّه بالإسار، والإسار: ما شذّ به، والجمع أسْرٌ؛ والأسير كأمير بمعنى المأسور، وهو المربوط بالإسار. ثم استعمل في الأخذ مطلقاً، ولو كان غير مربوط بشيء، والإسار: القيد ويكون حبل الكتاف، ومنه الأسير المقيد يقال: أسرتُ الرجل أسراً وإساراً فهو أسير ومأسور، وكل محبوس في قَدْ أو سجن أسير"^(٣)، وقوله تعالى: "ويطعمون الطعام على حُبّه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً"^(٤)، ويقال للأسير من العدو أسير لأن أخذه يستوثق منه بالإسار وهو القَدْ لئلا يفلت"^(٥).

وعند فقهاء القانون الدولي: "الأسير كل شخص يؤخذ لا لجريمة ارتكبها، وإنما لأسباب عسكرية"^(٦).

ونخلص من ذلك أن الأسير كل من وقع في قبضة عدو ففقد حريته وهو حي.

وضع الأسير أثناء الأسر:

على الرغم من كثرة أيام الغزوات والغارات، والحروب التي خاضها عرب ما قبل الإسلام، لم نجد أخباراً عن الأسرى إلا ما ندر، فكان لا بدّ من العودة إلى الشعر،

وروايات الإخباريين والأخذ منها بحذر لأن الشعر ممترج بالخيال، ويجنح إلى المبالغة، وتتحكم فيه العاطفة، وكذلك روايات الإخباريين.

إن للأسير أهمية كبرى كانت ولا زالت، وستبقى هذه الأهمية، لأنه برهان عملي محسوس على النصر المبين كما قال أكتثم بن صيفي في إحدى خطبه: "وأهنا الظفر كثرة الأسرى"^(٧).

لقد عذّ العرب كثرة الأسرى دليل القوة والشجاعة، ولطالما فخروا بقوتهم كما قال المهلهل:

فجأؤوا يهزّعون وهم أسارى نقودهم على رغم الأنوف^(٨)
وهاهو عمرو بن كلثوم يعود وقبيلته من المعركة ظافرين معهم الأسارى، وبعض الأسارى ملوك، يقول:

وكنّا الأيمنيين إذا التقينا وكان الأيسرين بني أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فأبوا بالنهاب وبالسبابيا^(٩) وأبنا بالملوك مصفدينا^(١٠)

لقد أسروا الكثير من الرجال بينهم الملوك فربطوهم وأوثقوهم ولا عجب من ذلك فهذا شأن الغالب والمغلوب^(١١).

فحاتم طيء مع شهرته بالكرم والنبل عندما أغار وقومه على بكر بن وائل وقاتلهم ما لبث طيء أن انهزمت، وقتل منها، وأسر جماعة كثيرة، كان حاتم من بين الأسرى بقي موقفاً عند رجل من غنيزة^(١٢).

ولنحاول الآن التعرف إلى معاملة الأسرى قبيل ظهور الإسلام.

معاملة الأسرى قبيل ظهور الإسلام:

لم تكن معاملة الأسرى واحدة قبيل ظهور الإسلام، فلا قوانين تنظم هذه المعاملة، ولا شريعة تردع، ولا عقل يفكر إلا بالثأر، ولا قيمة إلا قيمة النصر، ونشوة النجاح. لذا كانوا يذبحون الأسير، ويقدمونه قرابين للآلهة، ويستعبدونه، ويتخذونه رقيقاً للبيع والشراء، والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ.

١ - استرقاق الأسير:

نشطت تجارة الرقيق في العصور القديمة، وعدت الجزيرة العربية أهم الأسواق لتصريف هذه البضائع البشرية، إذ كانت دولتا الفرس والروم تبيعان ما يفيض عن حاجتهما من الأسرى بسوق عكاظ، وسوق دومة الجندل، وسوق حباشة^(١٣). وقد عرف تجار الرقيق باسم النخاسين وكان منهم عبد الله بن جُدعان^(١٤). فزید بن حارثة مولى الرسول (ص) من قضاة أصابه سباء قبل الإسلام لأن أمه خرجت به تزور قومها بني معن بن طيء، فأغار عليهم خيل بني القين بن جسر فأخذوا زياداً وقدموا به سوق عكاظ فاشتراه حزام لعمته خديجة، وقيل اشتراه من سوق حباشة فوهبته خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم^(١٥).

وعندما اشتعلت حرب بين لحيان، وخزاعة، كانت كلما أصابت بنو لحيان أحداً من خزاعة باعوه^(١٦) والأمثلة على ذلك كثيرة جداً.

فالأسير ملك أسرته، إن شاء ملكه فصار عبداً يحتفظ به لنفسه إن أراد، أو يهديه لغيره فيصير في ملك من أهدي له. أو يبيعه فيقبض ثمنه فتنتقل ملكية العبد إلى شاريه، وليس للرقيق حق الاعتراض على مالكه^(١٧) لأنه سلعة له يتصرف بها كما يشاء، فكيف يقع الرق على هؤلاء الأسرى؟

كان الرّق على الأسرى يقع في الغالب -على الأشخاص الضعاف الذين لا أهل لهم، والذين هم من عشائر مستضعفة، أو بعيدة، أو في حالات الذين وقعوا أسرى في غارات مفاجئة من أناس يقيمون في أماكن بعيدة، أو نهبوا وهم صغار، فلم يكن بالمستطاع ملاحظتهم، فيكونون بذلك رقيقاً، وهو في القليل كالذي حدث لزيد بن حارثة السالف الذكر، وكما حدث لسلمان الفارسي^(١٨)، وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١٩).

فالحرب حرب استيلاء وتوسّع والغالب هو الاسترقاق، وذلك لتسخير الأسرى في خدمات الدولة المنتصرة ومرافقها^(٢٠)، وبالتالي إذلالها.

فقد قام هؤلاء بأعمال متعددة خدمية داخل المضارب حرفية وزراعية. كان العرب يأنفون من الاشتغال بها. فمثلاً اتخذت قریش طائفة من الآلات الحية استوردت من الشمال من بلاد الشام والعراق هي الأسرى البيض الذين كانوا يقعون في أيدي الروم والفرس أو القبائل المغيرة على الحدود فيباعون في أسواق النخاسة، ومنها ينقلون إلى مختلف أنحاء جزيرة العرب للقيام بمختلف الأعمال^(٢١).

على أن الرقيق الأبيض كان أعلى ثمناً من سواه، لأنه أكثر ثقافة وكان يحسن من الأعمال ملا يحسنه العبيد السود، فوكل إليهم إدارة المبيعات، والقيام بالحرف التي تحتاج إلى خبرة ومهارة وفن، كالبناء فقد أشير إلى عامل رومي استخدم في بناء الكعبة عندما أرادت قریش تجديدها^(٢٢).

لذا كثر عدد الأرقاء قبل الإسلام في الجزيرة العربية لأنهم أصبحوا بضاعة ضرورية لا بدّ منها لأهل المال، تدرّ عليهم أرباحاً عظيمة فهم آلات ذلك العصر.

والفيد ذكره أن العبد الذي يعمل عند الأسرة كان يُفضل أن يكون خصياً، وإذا ما أسلمت المرأة الحرة لعبدها مراقبة أولادها أو مرافقتهم فإنها تجيز ذلك للذكور دون الإناث خشية الإساءة لهن، ويبدو أنه كان يسمح للعبد الدخول إلى الأماكن الخاصة،

أما العمل الخارجي الذي تكلف المرأة العبد به هو معاونتها في تجارتها كما فعل ميسرة غلام خديجة عندما بعثته في تجارتها مع النبي صلى الله عليه وسلم^(٢٣).

فهل كان باستطاعة هؤلاء التخلص من الرق؟

باعتبار أن حديثنا عن الأسير عندما يصبح رقيقاً. فغالباً ما كان يتخلص من عبوديته عنوة كأن تغزو قبيلة المأسور قبيلة الأسر فتأخذ أسراها عنوة، فيتخلص الأسير بذلك من الأسر، أي من الرق، ويصير حراً، وتسقط عنه كل ما كان لسيده من حقوق عليه، وكان أهل الأسير يتحايلون بمختلف الطرق لتخليص أسيرهم من الأسر، فإن نجحوا في تخليصه صار حراً، وإن فرّ الأسير من الأسر، ولم يتمكن أسره من القبض عليه صار فراره حرية له.

ويتحرر الأسير من عبوديته بشراء حريته بمبلغ من المال يؤديه إلى مالكه، فيأذن له بالعمل ليحصل على المبلغ المتفق عليه، ويتحرر متى أدّاه، ويسمى هذا الاتفاق (عقد المكاتبه) ويسمى العبد مكاتباً وهذا العقد لازم لا يملك المولى فسخه من غير رضی المكاتب وبه تزول يد المولى عنه ويصير أحق بمنافعه ومكاسبه^(٢٤).

أضف إلى ذلك فقد شرّعت القوانين القديمة العتق وعلقته بإرادة السيد في حياته أو بالوصية بعد موته^(٢٥).

٢ - قتل الأسير:

كان الأسير في بعض الحالات يقتل، ويلقى حتفه، حرقاً أو ذبحاً، أو يقدم قرابين للآلهة^(٢٦)، وتحفل كتب التاريخ بأمثلة على ذلك.

فعندما أخذت الرباب عبد يغوث، قتلته بقتل النعمان بن جساس^(٢٧).

وعندما جمع ذو نواس، النصاري، حفر أخدوداً لهم، وأحرقهم فانتقم الأجباش لهم شو انتقام، فقتلوا زهاء ثلث رجال اليمن وخربوا ثلث مدنها، وبعثوا إلى الحبشة بثلث سباياها بتنفيذاً لكتاب القيصر إلى النجاشي^(٢٨).

وبالحيرة أغار المنذر بن النعمان بن امرئ القيس على امرئ القيس بن حجر، وأخوته وهم في صيد، فأصاب منهم اثني عشر رجلاً من بني حجر بن عمرو، لثأر كان له عند أبيهم، ثم أمر بضرب أعناقهم^(٢٩).

وجمع المنذر بن امرئ القيس أسرى في الحظائر ليحرقهم فسمي أبا حوط الحظائر^(٣٠).

وفي يوم أواره الأول، أسر المنذر بن امرئ القيس من بكر أسرى كثير فأمر بهم فذبخوا على جبل أواره وأمر بالنساء أن يحرقن^(٣١). وقدم المنذر بن ماء السماء ٤٠٠ من أسرى الغساسنة كضحايا للعزى^(٣٢)، كما قدم ابن الحارث الذي كان لا يزال علي دينه الوثني ذبيحة للآلهة أفروديت أي (العزى)^(٣٣).

ويروى أن عمرو بن هند ملك الحيرة قتل من بني دارم، مائة شخص انتقاماً لقتلهم أخيه، وأنه ألقى بالقتلى في النار^(٣٤).

٣- جز الناصية وإطلاق السراح:

تجز ناصية الأسير أحياناً تشهيراً به وتوكيداً للمذلة، وفخراً للأسر حيث يخير الأسير بين جز الناصية والتخلية، وبين الأسر فإن اختار جز الناصية جزها وخلقى سبيله، وجعل الأسر شعراً للأسير في كنانته ليخرجه للمفاخرة كقول الخنساء:

جزرنا نواصي فرسانهم وكانوا يظنون أن لن تجز^(٣٥)

فزيد الخيل أسر الشاعر الحطيئة، فجز ناصيته وأطلقه^(٣٦)، وكذلك فعل بعامر بن الطفيل^(٣٧).

وأسر حبش بن دلق، عمرو بن الحارث فجز ناصيته، واشترط عليه أن يبعث إليه كل سنة بحباء حتى يموت^(٣٨).

ومن المؤكد حرصهم على جز ناصية الأسير الشريف أكثر من غيره إمعاناً في الإذلال له، والاعتزاز بالعفو عنه عند المقدرة، وإفهام الناس أن ذلك الشخص لا يساوي شيئاً، وأن المتمكن أرفع من أن يقبل فدية عن رجل وضع حامل، فمثلاً بعد هزيمة ذي قار، جاء أسود بن بجير بن عائد بن شريك العجلي إلى النعمان بن زرعة يستتجد به، فجز ناصيته وخلي سبيله^(٣٩).

وعندما وقع بسطام بن قيس في أسر عتيبة بن الحارث لم يطلق سراحه حتى أتنه أم بسطام بثلاثمائة بعير فقبضها عتيبة وجز ناصيته وخلي سبيله، وكان يسطام عاب على عتيبة مركب أمه فحلف أن لا يطلقه حتى يأتيه بمركب أمه مع الفداء الذي فارقه عليه^(٤٠)، وقيل فادى بسطام نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرساً وهودج أمه^(٤١).

ووقع الحارث بن شريك من الجرارين في ربيعة، ويعرف بالحوفران في أيدي بني يربوع، فلما غزا قومه بني يربوع في هذا اليوم كانت يربوع يقظة عارفة بعزم بكر فأخذوا بكراً على غرة وسقط الحوفران، أسيراً فجزت ناصيته ودفع مننين من الإبل حتى فدى نفسه من الأسر^(٤٢). ولما أغار خزيمة بن طارق التغلبي على بني يربوع وهم بزروء، واستاق إيلهم، كانت نتيجة غزوته هذه أن تعقب بنو يربوع أثره وأسووه واستنفذوا ما كان قد أخذ ثم أسروه ولم ينج إلا بعد جز ناصيته ودفع مئة من الإبل^(٤٣).

هذا بالنسبة للعامة ممن وقعوا في الأسر، أما إذا وقع الملك في الأسر فهل تجز ناصيته؟ القاعدة أن الملوك لا تجز نواصيها^(٤٤)، لكن البعض كان يخرق هذه العادة، فعندما أسر قابوس بن المنذر بن النعمان الأكبر من قبل طارق بن حصبة بن أزنم بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع في يوم ذات كهف، ويوم طخفة جزت ناصيته، جزها طارق

فقال قابوس لطارق: إن الملوك لا تجز نواصيها، فأجابه: قد قال في ذلك ابن المتمطر لابن عمك حين أسره^(٤٥).

٤- إطلاق سراح الأسرى (المن عليه):

من شيم الرجال المنّ على الأسرى بفك رقابهم وإعطائهم حريتهم وقد أبت مروءة بعض السادات إلا أن يقوم بفك أسر الأسرى وإعتاق رقابهم، وفي ذلك مفخرة لهم، فالخنساء تفخر في رثاء أخيها صخر بأنه كان يطلق الأسرى ويمنّ عليهم:

ورب نَعْمَى منك أنعمتَها على غُناة غلق في الإسار^(٤٦)

وافتخر لبيد أيضاً بإطلاقهم الأسرى بغير فداء بقوله:

وعان فككناه بغير سِوامة فأصبح يمشي في المحلة جلازلاً^(٤٧)

ولعلمهم أطلقوا الأسير مكرماً، إذا شفع فيه شاعر ذو مكانة أو عظيم في قومه، كما حدث لبني تميم حين أسره الحارث بن أبي شمر الغساني، وكانوا يربون على المائة أسيراً بينهم شأس بن عبدة فوفد أخوه علقمة بن عبدة الشاعر على الحارث يطلب إليه أن يطلق أخاه، ومدحه بقصيدة طويلة فمنّ عليه وأطلق له الأسرى من تميم وكساه وحباه^(٤٨).

ولما غزا عمرو بن هند طيناً، وأسر منها سبعين رجلاً كان في الأسرى قيس بن جحدر ابن خالة حاتم، فوفد حاتم إلى عمرو يسأله أن يطلقهم فوهبهم له إلا قيس بن جحدر، ثم أنشده قصيدة تقول:

فككتَ عدياً كلّها من إسارها فافضل وشفعني بقيس بن جحدر

أبوه أبوي والأمهات أمهاتنا فأنعم فدتك النفس قومي ومعشوي

فقال: "هو لك"^(٤٩).

وأسر حنظلة بن عمار من بني شُريب بن ربيعة بن عجل جويرية بن بدر من بني عبد الله بن دارم، ثم من بني عبيد بن زرارة فلم يزل في الوثاق حتى رآهم ذات يوم قد جلسوا للشراب فأنشد قائلاً:

وقائلة ما غالة أن يزورنا وقد كنت عن تلك الزيارة في شغل
وقد أدركتني والحوادث جمّة مخالب قوم لا ضعاف ولا عزل
سراع إلى الجلى بطاء عن الخنا رزان لدى الباذين في غير ما جهل
لعلمهم أن يمطروني بنعمة كما صاب ماء المزن في البلد المحل
فقد ينعش الله الفتى بعد عشرة وقد تَبَيَّنَتِ الحسنى سراة بني عجل
فلما سمعوها أطلقوه (٥٠).

وفي يوم خزازى كان في يد ملك من ملوك اليمن أسرى من ربيعة، ومضر، وقضاعة، فوفد عليه وفد منهم من وجه معد، فلقبهم رجل من بهراء، يقال له عبيد بن قراد وكان في الأسارى وكان شاعراً فسألهم أن يدخلوه في عدة من يسألون فكلموا الملك فيه وفي الأسارى فأطلق سراحهم (٥١).

وإن دلّ هذا على شيء فإنه يدلّ على أن العرب كانت تقيم وزناً للشاعر، وتعدّ الشعر مقام الحكمة، وكثرة العلم، وللشعر أثر خطير في نفوس العرب، كان يهز عواطفهم هزاً وكان يفعل فيهم فعل السحر، فهو سلاح ماض عند العرب، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكماً" (٥٢).

ولم يكن الشاعر الشخص الوحيد الذي تشفع للأسير لإطلاق سراحه فجاذبية الحديث والشكل كان لها سحرها عندهم ففي حديث بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومتمم بن نويرة عن أخيه مالك القول:

"لقد أسرنى بنو تغلب فى الجاهلية فبلغ ذلك مالكا فجاء ليفتدنى فلما رآه القوم أعجبهم جماله، وحدثهم فأعجبهم حديثه فأطلقونى بغير فداء"^(٥٣).

٥- فداء الأسير:

وكانت العرب تفدى الأسرى فى بعض الأحيان، والدليل على ذلك أنه لما طال أسير بني عامر عند زيد الخيل: قالوا: يا زيد فادنا^(٥٤)، وهامو سلمة بن مرة بن همام يطلق سراح أسيره بعد أن أخذ منه الفداء^(٥٥).

وأسر رئيس بني شيبان الأقرع، وأخاه عند بسطام فافتديا نفسيهما من بسطام وعاهداه على إرسال الفدية فأطلقهما، ولكنهما لم يرسلما ما اتفقوا عليه وخانا العهد^(٥٦).

فالملاحظ أنه كان لا يوجد مقدار معين للفدية، ولا حدود معلومة ولا قواعد ثابتة، بل توقفت الأمور على مبدأ المساومة، وتوقفت هذه المساومة على منزلة الأسير، أو على مكانته الاجتماعية ومقدار استعداد أهله لدفع مال الفدية عنه، أو مبادلتة بأسرى غيره، كما كانت تتوقف الفدية على صلابة الأسر، والقوات المنتصرة.

لذا قد يفادى رجل بمال كثير إذا كان ملكا، أو سيد قبيلة وقد يفادى بعدد من الأسرى هم فى أيدي جماعة الأسير، فيكون أسره إذ ذاك سببا فى فك رقبة عدد من الأسرى^(٥٧) وهذا ما توضحه الأمثلة التالية:

غزا الأشعث بن قيس الكندي مذحجا، وأسر أثناء الغزوة ففدى نفسه بألفي بعير، وألف من الهدايا والطرف، قال الشاعر:

فكان فداؤه ألفي بغير وألفاً من طُريفات وتلد^(٥٨)

وأسر بنو يربوع القائدين قابوس بن النعمان، وحسان بن المنذر، ثم أطلقوهما، فأعطى النعمان بني يربوع ألفي بغير وأبقى لهم الرفاة وقيل^(٥٩) فقد كانت رفاة ملوك الحيرة في بني يربوع.

وأسر العامريون في يوم السلان، وبرة من رومانوس الكلبي، أخوا النعمان بن المنذر، لأمه فافتدى بألف بغير وفرس^(٦٠)، وفدى عمرو بن عمر بمئتين من الإبل^(٦١)، ودفع هوزة الحنفي ثلاثمائة بغير فداء لنفسه لما أسره بنو سعد، وفي ذلك يقول شاعر بني سعد:

ومنا رئيس القوم ليلة أدلجوا بهوزة مقرون اليدين إلى النحر
وردنا به نخل اليمامة عانيلاً عليه القد والحلق السم^(٦٢)

والمفيد ذكره أنه باستطاعة أي شخص أن يقدم الفداء، ويفك الأسير، فلقد ساء بعض السادات أن يجدوا أسيراً إلا وفكوه بفداء يقدمونه عنه، من هؤلاء، سعد بن مِثْمَث بن المخبل، وكان من رجال بني المخبل قبل الإسلام، كان لا يجد أسيراً إلا افتكه^(٦٣).

وبمناسبة الحديث عن فداء الأسرى يجدر بنا القول إن حاجب بن زرارة، وهو من تميم كان أكثر العرب فداءً. "فإنه لم يسمع بملك ولا سوقة افتدى بمثل فداء حاجب... وذلك أنه ادعى أسره ذو الرقيبة مالك من بني عامر بن صعصعة... وادعاه الزهد- مان وهما من بني عيس.. فحكّمته عيس وعامر في نفسه فحكم أنه أسير ذي الرقيبة ولهذين العبسين بما نالا من ثيابي مائة ناقة وأعطى ذا الرقيبة ألف بغير وأطلق له مائة من الأسارى -أسارى قيس كانوا في بني تميم- وقالوا إنما ديات الملوك ألف بغير فزادهم حاجب على فداء الملوك مائة ناقة ومائة أسير... وزعمت قيس في أشعارها أنها أخذت مئة ألف عبد وألفي ناقة ومعها أولادها^(٦٤).

ولم يكن فداء الأسرى مادياً ، فقد يجري الفداء عن طريق تبادل الأسرى فعندما أغار جزء بن سعد الرياحي ببني يربوع على بكر بن وائل وهم خلوف فأصاب سبيهم وأموالهم وأغار الهذيل على بني يربوع فأصاب سبيهم وأموالهم أيضاً، ثم اصطالحا على أن خلى جزء ما في يديه من سبي بكر بن وائل وأموالهم وخلى الهذيل ما في يديه من سبي يربوع وأموالهم^(٦٥). ولما أسرت بنو شييان الشنفرى الأزدي، لم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان رجلاً منهم فدته بنو شييان بالشنفرى^(٦٦).

٦- التمثيل بالأسرى:

على الرغم من ميل العرب إلى الأسر وإيجاد الفخر في كثرة عدد الأسرى، وعدم تعذيبهم، أو التمثيل بالقتلى، نسمع ببعض الحالات وهي نادرة الوقوع، فقد وردت روايات عديدة عن انتقام امرؤ القيس من بني أسد من بينها أنه ألبسهم الدروع المحماة. وكحلهم بالنار. وشرب الخمر في قحف رأس الأشقر بن عمر سيد بني أسد بعد قتله انتقاماً لوالده الملك الكندي^(٦٧).

ونجد في ذلك مبالغة شديدة، وذلك لتجسيم، وتعظيم ما قام به من انتقام.

ولعلنا سمعنا بأسر معبد بن زرارة، وعدم التمكن من فكه، فعذب من قبل أسره عذاباً حتى الموت^(٦٨).

وأحياناً كان الأسير يخنق نفسه مخافة المثلة كما فعل الحكم بن الطفيل وفي ذلك قال عروة بن الورد:

عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهم ومقتلهم تحت الوغى كان أعذراً^(٦٩)

ومفيد أن نذكر هنا أنهم كانوا يشدون لسان الأسير إذا كان شاعراً حتى لا يهجوهم^(٧٠)، لكن لا يمكن أن يتم ذلك لأن الأسير الشاعر يصبح في وضع لا يستطيع أن يهجو وإن

هجا فمن يتجرأ على رواية هجائه، ثم إذا كان الشاعر يتشفع بالأسرى بقصيدة لفك أسرهم، فالأولى به أن يكتب قصيدة يمدح بها أسره ليطلق سراحه.

والجدير بالذكر أن الأسير كان لا يستأسر لمن هو أقل منه فعندما طلب الزهدمان: زهدم وقيس من حاجب بن زرارة أن يستأسر. رفض أن يستأسر لموليين، وعندما أدركه مالك ذو الرقية ابن سلمة بن قشير وطلب منه أن يستأسر فعل عن رغبة منه^(٧١).

معاملة الأسير في صدر الإسلام:

خاض المسلمون كثيراً من الغزوات والمعارك والحروب بعد تشريع الجهاد، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا بعث بعثاً قال: تألقوا الناس وتأنوا بهم، ولا تغثيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين، أحب إلي من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم^(٧٢). وإذا كان الأمر كذلك، وكان للحروب الإسلامية غايتها التي لا يندرج تحتها جمع الغنائم، أو أسر الأسرى، فما بال هؤلاء الأسرى وقعوا في قبضة المسلمين؟

نحن نعلم أن شريعة الإسلام، "القرآن الكريم"، فكيف شرع التعامل مع الأسرى؟

لم يتناول القرآن الكريم شؤون الأسرى في الحقبة الأولى، فعندما "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش بن رباب الأسدي في رجب، مقفلة من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد وكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي بما أمر به، ولا يستكره من أصحابه أحداً..

لما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامضي حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا

من أخبارهم، فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى نخلة أرصد قريشاً حتى آتية منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف عنه منهم أحد.

وسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع، يقال له بحران أضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بغيراً لهما، كانا يتعقبانه، فتخلفا عنه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقيّة أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به بغير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي.

فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه، فلما رآوه آمنوا، وقالوا: عمار، لا بأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من رجب فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم. فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت من القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله ابن جحش وأصحابه بالغير وبالأسيرين، حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة.

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام فوقف العير والأسيرين... فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان. فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نفديكوهما حتى يقدم صاحبان يا يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان فعندما قدما أخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم^(٧٣). وفداهما الرسول صلى الله عليه وسلم بأربعين أوقية من فضة لكل واحد والأوقية أربعون درهماً^(٧٤). ثم كانت معركة بدر وهنا قامت مشكلة الأسرى، لأن أسرى بدر كانوا نواة لتكوين الأحكام المتعلقة بالأسير في الفقه الإسلامي، لأنهم أسروا في الحرب بعدد لم يألفه المسلمون، فقد قيل كان عدد من قتل أربعة وسبعين رجلاً ومثلهم أسرى أو أكثر بقليل أو أقل^(٧٥).

لذا اختلف الصحابة فيما بينهم، وأثيرت نقطة جدل حولهم فمن قائل. بقتلهم، وآخر بالفدية أو المن وأمام كثرة الآراء كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقتل بعض الأسرى ويمن على بعضهم الآخر، ويقبل الفداء من فريق ثالث... وهؤلاء نزل بهم القرآن الكريم يحمل للرسول وأصحابه كتاباً في رأي البعض. قال تعالى: "ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض"^(٧٦)، وتلتها الآية: "فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها"^(٧٧).

إذ أصبح النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآيات مخيراً بين الفداء والمن شرط الإثخان في الأرض. وكان صلى الله عليه وسلم إذا أرسل بعثاً أوصى أمراء الجند بتقوى الله وبمن معهم من المسلمين خيراً ويقول: "اغزوا بسم الله تقتاتلون من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا ولياً"^(٧٨).

وكان من عادته صلى الله عليه وسلم أنه إذا غنم غنيمة من أهل الشرك لا يقسمها في دار الحرب، وقد قسم غنائم بدر، بعد منصرفه إلى المدينة وقسم غنائم حنين، بعد منصرفه من الطائف إلى الجعرانة، و قسم غنائم خيبر بخيبر، وكان قد ظهر عليها،

فصارت مثل دار الإسلام، وقسم غنائم بني المصطلق في بلادهم لأنه كان فتحها وجرى حكمه عليها، وكان القسم فيها بمنزلة القسم في المدينة^(٧٩).

فإذا وزع الغنائم والأسرى أمر بشد وثاقهم، فحين أسر العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم سمع الرسول أنينه فقال صلى الله عليه وسلم ما لي أسمع أنين العباس، فقال رجل من القوم أني أرخيت وثاقه شيئاً قال فافعل ذلك بالأسارى كلهم^(٨٠)، وعندما فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسارى بين أصحابه قال: استوصوا بالأسارى خيراً^(٨١).

فالواضح أنهم كانوا يكبّلون الأسير حتى لا يهرب، فأين كانوا يضعون هؤلاء الأسرى؟ لم تخصص أماكن لاعتقالهم في الحقبة التي نحن بصدد البحث بها -فيما بعد خصصت أماكن لاعتقالهم- لذا كان ربط الأسير أمراً مؤقتاً حتى يتقرر مصيره^(٨٢). وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حبس في مسجد المدينة رجلاً من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فربط بسارية من سواري المسجد^(٨٣).

وكانوا يضعونهم في بعض البيوت، فقد رأت سودة بنت زمعة في بيت النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة أبا زيد سهيل بن عمرو أحد أسرى بدر مجموعة يذاه إلى عنقه بحبل^(٨٤).

إذا كانوا يربطونهم أحياناً في بعض السواري، أو يضعونهم في المسجد، أو في بعض البيوت ريثما يتم الفصل في أمرهم، إلا أنهم كانوا يرفقون بحالتهم، ويعطفون عليهم تنفيذاً لأمره تعالى "ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً"^(٨٥) وتوصية الرسول صلى الله عليه وسلم حيث فرق الأسارى بين أصحابه بقوله: (استوصوا بالأسارى خيراً)^(٨٦).

فكانوا يطعمونهم ويكسونهم ولا يعذبونهم، فها هو أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى يقول: "مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال: شدّ يدك به فإن أمه ذات متاع لعلها تقضية منك، قال: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، قال" فأستحي فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسه"^(٨٧).

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في بني قريظة بعدما احترق النهار في يوم صائف: (أحسنوا أسارهم وقيلوها واسقوهم حتى يبردوا فتقتلوا من بقي، ولا تجمعوا عليهم حرّ الشمس وحرّ السلاح، وكان يوماً صائفاً)^(٨٨).

أضف إلى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لم يقبل التمثيل بالأسرى فعندما أسر سهيل بن عمرو وطلب عمر بن الخطاب من الرسول نزع ثنيته حتى يدلع لسانه فلا يهجو النبي في موطن أبداً أجابه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً"^(٨٩).

وقد لجأ المسلمون إلى عدة طرق في معاملة الأسرى يفوح منها رائحة العطف والرحمة والرفق.

١ - مبادلة الأسير:

أطلق المسلمون سراح بعض الأسرى مقابل بعض، فقد تم تبادل عمر بن أبي سفيان من أسرى بني بكر بسعد بن أكال^(٩٠)، وأطلق سراح رجلين من المسلمين برجل من عقيل وجارية حسناء، وقيل أطلق سراح رجلين مسلمين برجل من الكفار^(٩١)، ووهب بنتاً من بني فزارة بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة، وفادى بها أناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة في أيدي المشركين^(٩٢).

والملاحظ أن تبادل الأسرى لم يكن بالتساوي في العدد.

٢- فداء الأسير:

أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الأسرى وأخذ الفداء منهم، وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الفداء يوم بدر: أرفعهم، أربعة آلاف، إلى ثلاثة آلاف، إلى ألفين، إلى ألف إلى قوم لا مال لهم، من عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٩٣).

وقد أخذ مائة أوقية من ذهب فداء لعمه العباس وابني عمه عقيل ونوفل، ورفض أن يتركهما دون فداء، وأخذ أربعة آلاف درهم من المطلب بن أبي وداعة في فداء أبيه^(٩٤). ومثله في فداء أبي عزيز بن عمير^(٩٥)، والوليد بن عقبة^(٩٦)، والحارث بن أبي وجزة^(٩٧). وافتدى المنذر بن أبي وداعة بألفين، وافتدى عبد الله وهو أبو عطاء ابن السائب بن عابد بن عبد الله بألف درهم^(٩٨).

هذا إذا كان الأسير صاحب مال. وإن كان الأسير فقيراً ويحسن الكتابة فكان فداؤه مقابل تعليم عشرة من صبيان المسلمين^(٩٩). وفي ذلك مصلحة الدولة الإسلامية.

٣- المن على الأسير:

أطلق المسلمون بعض الأسرى دون فداء إما لفقرهم، أو لخير مأمول منهم يعود على المسلمين، كما فعل بالشاعر أبو عزة في بدر^(١٠٠)، كذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثمامة بن أثال بعد أسره^(١٠١)، وأطلق صلى الله عليه وسلم السائب بن عبيد، وعبيد بن عمرو بن علقمة بلا فدية^(١٠٢) ولما طال مكوث صيفي بن أبي رفاعة بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - ولم يكن له مال - أطلق دون فداء^(١٠٣).

ولعلَّ الرسول صلى الله عليه وسلم منَّ على بعض الأسرى تقديرًا منه أنه بإطلاق سراحهم يحصل الخير، أو قد يكون ذلك مدعاة للدخول في الإسلام كما حدث مع ثمامة بن أثال بعد المنَّ عليه، حيث أسلم ودخل في دين الله^(١٠٤).

ويكون المنَّ كما لاحظنا الإفراج النهائي عن الأسير وإطلاق سراحه دون قيد أو شرط، أو إطلاق سراحه بعد إعطاء كلمة شرف بأن لا يعمل عملاً ضدهم، وعلى الأسير المفرج عنه أن يراعي الوعد الذي أعطاه ولا يقوم بعمل يتنافى مع وعده، فإذا أخلَّ بذلك عوقب بالقتل كما حدث لأبي عزة الذي أطلق سراحه ببدر، فقد ضرب عنقه في أخذ وسيأتي الحديث عن ذلك فيما بعد.

٤ - استرقاق الأسير:

لم يرد استرقاق الأسير في القرآن مطلقاً كحكم من أحكام الأسر، ولم ترد آية واحدة، أو حديث يدعو إليه، أو حتى يبيحه، كما لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز رقاً على حرٍّ في حياته، حتى وإن أذنب أو عجز عن وفاء ديونه، لكن على الرغم من أن الإسلام قدَّر معنى الحرية ولذتها، وعدَّ الأصل في الإنسان هو الحرية، ومنع استرقاق الأسرى العرب، أقرَّ واقع وجود الرق، ولم يعمد إلى إلغاء الاسترقاق، غير أنه أوجد السبل الكثير لتحرير الرقيق، وفرض أحكام، حسن معاملة الأرقاء في المأكل والملبس والسكن، ولعله كان من المتعذر إلغاء الرق في مجتمع كان عماد الحركة التجارية والزراعية فيه متعلقاً بقوة الرق. ثم إن خطط الفتوحات والمواجهات العسكرية مع شعوب العالم فرضت إبقاء أعراف استرقاق الأسرى، يضاف إلى هذا أن مجتمع ما بعد نجاح الفتوحات احتاج دوماً إلى الرقيق للخدمات الخاصة، وللعمل في المزارع وورشات الحرف والصناعات.

ومن ناحية ثانية، وباعتبار أن الأمم المجاورة كانت تسترق الأسرى فجرياً على شريعة الإسلام المعاملة بالمثل ومقتضى ضرورة قانون الحرب السائد في ذلك الزمان

ولكي يُشعر المسلمون غيرهم أنهم صاروا في مركز ذي كيان عالٍ يستطيعون تنفيذ تعاليم الحرب، وتثبيت الهيبة والسلطان فإذا قدرُوا عفواً وصفحوا، وأظهروا فضلهم وإحسانهم، فيكون ذلك مدعاة لقبول الإسلام بما ضمَّ بين جناحيه من رحمة ورعاية وعطف وإنسانية لجميع البشرية، وإلا فقانون المعاملة بالمثل يقتضي أنه إذا كان الأعداء يسترقون أسرارنا، كان للمسلمين أن يسترقوا أسرارهم، ويكون من أكبر المفاصد والضرر أن يسترقوا أسرارنا ونطلق أسرارهم، وإن كانوا لا يسترقون فلا يحل للمسلمين أن يسترقوا لأن ذلك يكون اعتداء وهم منهيون عنه.

لذا كان استرقاق الأسرى هي الحالة التي أخذ فيها المسلمون بمبدأ المعاملة بالمثل مع عدم الإساءة للأسير أو إهدار إنسانيته، أي وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الإجراء، فقد أباح الاسترقاق، ولكن بأضيق الحدود بتخيير رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد هوزان بين السبي أو المال^(١٠٥)، وكذلك بني المصطلق^(١٠٦).

والجدير بالذكر أن أغلب ما استرق من القبائل أو أفراد العدو عاد حراً، فقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة آلاف من سبي هوزان من النساء والصبيان والرجال إلى هوزان حين أسلموا^(١٠٧)، ومن على أهل مكة بقوله: اذهبوا فأنتم الطلقاء^(١٠٨)، وكذا من على أهل خيبر^(١٠٩).

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرية بنت الحارث من سبايا بني المصطلق، فأعتق بتزوجه إياها مائة من أهل بني المصطلق إكراماً لصهر الرسول صلى الله عليه وسلم، فما كانت امرأة أعظم بركة على قومها منها كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها^(١١٠).

ومن فضول الكلام القول: مجدداً أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينشئ رقاً على حر أبداً، وقد أعتق ما كان عنده من رقيق، وكان يعتق كل ما أهدى إليه^(١١١).

٥- قتل الأسير:

هناك أسباب دفعت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قتل البعض، وهي حالات نادرة تناولت مجرمي الحرب ممن آذى المسلمين ولج في تعذيب واضطهاد الضعفاء منهم، وألب الناس عليهم. فقد قتل رسول الله عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث^(١١٢)، وقتل النبي صلى الله عليه وسلم أبا عزة الجمحي الشاعر يوم أحد بعد أن كان قد منّ عليه في بدر^(١١٣). ولما حاصر النبي صلى الله عليه وسلم بني قريظة خمساً وعشرين ليلة، حكم سعد بن معاذ فيهم بقتل المقاتلة وكانوا أربعمائة أو أكثر^(١١٤)، ولما فتح خيبر بعضها صلحاً وبعضها عنوة شرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتم شيئاً، فلما ظهر عليه خيانتة وكتمانه قتله^(١١٥).

إذاً نفذ الرسول صلى الله عليه وسلم بمجرمي الحرب وفق حكم عسكري اتفقوا عليه. ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، قيل له هذا ابن خطل (هلال بن عبد الله بن عبد مناف الأدرمي) متعلقاً بأستار الكعبة فقال: اقتلوه، وذلك لأنه أسلم وهاجر إلى المدينة فبعثه النبي صلى الله عليه وسلم ساعياً على الصدقة وبعث معه رجلاً من خزاعة فوثب على الخزاعي فقتله وذلك لأنه كان يخدمه ويتخذ له طعامه فجاء ذات يوم ولم يتخذ له شيئاً فاعتاظ وضربه حتى قتله وقال: إن محمداً ستقتلني به فارتد وهرب وساق ما كان معه من الصدقة وأتى مكة فقال لأهلها: لم أجد ديناً خيراً من دينكم وكانت له قينتان فكانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدخل عليهما المشركون فيشربون عنده الخمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح اقتلوه ولو كان متعلقاً بأسنان الكعبة^(١١٦).

وعندما دبّر دريد بن الصمة أمر قومه وحرضهم على قتال المسلمين استحقّ القتل في يوم حنين^(١١٧).

لقد نفذت عقوبة القتل بهؤلاء لأنهم مجرموا حرب والقصة التالية توضح ما ذهبنا إليه:

"أسر أبو بردة بن دينار معبد بن وهب من بني سعد بن ليث فلقية عمر بن الخطاب فقال له هذا الرجل: أترون يا عمر أنكم قد غلبتم؟ كلا واللات والعزى، فقال عمر أتقول هذا وأنت أسير في أيدينا؟ ثم أخذه من أبي بردة وقتله، ويقال إن أبا بردة قتله" (١١٨).

لو بحثنا عن السبب الذي دعا عمر إلى قتل هذا الرجل لوجدنا أن عناد ومكابرة وتحدي هذا الرجل الأسير أدت إلى خسرانه حياته. فقتل الأسرى بعد بدر كان لا يحكم كونهم أسرى وإنما لما فعلوه قبل الأسر أو في الأسر فاستحقوا عليه القتل وأخذوا به لا بمجرد خروجهم للقتال.

وإذا صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أمر بقتل مجرمي الأسرى، فقد نهى عن قتل بعضهم الآخر لمواقفهم التي تستدعي البراءة، فنهى عن قتل أبي البختری لأنه وقف يوماً وهو يلبس سلاحه في وجع أهل مكة وهو يقول: لا يعترض اليوم أحد لمحمد بأذى إلا وقعت فيه السلاح. فشكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك له لأنه كان أكف القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني المطلب (١١٩).

وكذلك نهى عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل وقال: يؤسر ولا يقتل وقد كان كارهاً للخروج إلى بدر فلقية خبيب بن أساف فقتله وهو لا يعرفه فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لو وجدته قبل أن يقتل لتركته لنسائه، وهو الذي قال له النبي صلى الله عليه وسلم من لقيه فليدعه لأيتام بني نوفل بن عبد مناف (١٢٠).

٦- التمثيل في الأسير:

نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك لأنه أوصى لفك العاني ومفاداة الأسير كما مرَّ معنا، ولكن إذا تمادى أحدهم في غيِّه فتطبق عليه أقسى العقوبات ويعامل معامل مجرمي الحرب.

فعندما قدم ثمان من عرينه على النبي صلى الله عليه وسلم في شوال سنة ٦ هـ فاستأذنوه أن يشربوا من ألبان العير التي يرعاها المسلمون ناحية قباء، فأذن لهم فغدوا على اللقاح فاستاقوها، فأدركهم يسار مولى النبي صلى الله عليه وسلم فقاتلهم فأخذوه وقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك في لسانه وعينه حتى مات، وانطلقوا بالعير، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثرهم عشرين فارساً، واستطاع هؤلاء الفرسان أن يحيطوا بهم ويأسروهم ويأتوا بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وصلبهم^(١٢١).

ولم تسلم بعد ذلك عين، ولا بعث النبي صلى الله عليه وسلم بعثاً بعد ذلك إلا نهاهم عن المثلة، ولم نسمع أنه أحرق في النار أحداً، فقد روى عنه القول: "لا تعذبوا عباد الله بعذاب الله"^(١٢٢).

ولعل هذه الحادثة إن حدثت كانت على مبدأ قصاص مجرمي الحرب حسماً لمادة الفساد واستئصالاً لجذور الشر... وتمكيناً للدعوة وإظهاراً لصلابة النبي صلى الله عليه وسلم وتصميمه على الدفاع عن أصحابه من المسلمين أياً كان وضع أحدهم، ولكي لا يستغل الأعداء رحمة وإنسانية الرسول صلى الله عليه وسلم، وليعلموا أنه قادر على معاملتهم بالمثل عندما يتمادوا في الاعتداء فكيف له أن يحسم مادة الفساد بغير اللجوء إلى هذه الطريقة.

الخاتمة:

هذه هي طرق معاملة الأسير قبيل ظهور الإسلام، وفي العصر النبوي، فبعد أن كانت تتصف بصفات التسلط والعنف والقسوة واللارحمة واللاإنسانية والفوضى، وانعدام التشريع الملزم والدائم بشكل عام، جاء الإسلام فضرب مثلاً أعلى للبشرية بالرفق بالأسارى والرحمة بهم والعناية دفاعاً عن الحق، ونشر العدالة بين الناس، وكان ذلك ضرورة لنشر الدعوة والدفاع عن حرية العقيدة. فالإسلام الذي دعا إلى

احترام كيان الإنسان أحسن إلى الأسير ورفق به ليكون في ذلك معالجة لنفوس بسيرة، ومحافظة على مشاعر مهزومة.

وظهر الإسلام بمنأى عما كان سائداً من إعدام الأسرى وذبحهم وحرقتهم وتعريضهم في الاحتفالات والمواسم للصراع مع الأسود والدببة وتقديمهم قرابين بشرية في الطقوس والمواسم وفي الإسلام الإمام مخير بين شيئين لا ثالث لهما، وهما المن أو الفداء، ولكن ذلك مشروط بالإثخان في الأرض ومعناه المغالبة في قتل العدو.

وحكايات القتل والتمثيل والإسراف في القسوة وغير ذلك فكانت من قبيل المعاملة بالمثل، ولم يقدم عليها المسلمون إلا أفراداً وفي حالات استثنائية، ردة فعل على ممارسات العدو في أسرى المسلمون، ثم حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك ومنعه، وبذلك نرى أن الإسلام قد سبق كل النظريات الدولية، والنظم المعاصرة في المحافظة على أرواح الناس ورعاية حرياتهم المقررة لهم فقد ولدتهم أمهاتهم أحواراً، وكانت ممارسات الإسلام المثالية أقدم من ميثاق جنيف بقرون طويلة.

الحواشي

- (١) الميداني: مجمع الأمثال، ٣٣٤/٢.
- (٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥٨٨/١. جاد المولى: أيام العرب ٣٢٢ وما بعد.
- (٣) الزبيدي: تاج العروس مادة أسر.
- (٤) سورة الإنسان: الآية ٨.
- (٥) ابن منظور: لسان العرب مادة أسر.
- (٦) زحيلي: آثار الحروب ٤٠٣.
- (٧) جاد المولى: أيام العرب ١٢٦.
- (٨) اليسوعي: شعراء النصرانية ١٨٠. الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٦٤.
- (٩) أبوا: كرهوا. ابن منظور: لسان العرب مادة أبي.
- (١٠) ديوان عمرو بن كلثوم ٩٣-٩٤. الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٦٥.
- (١١) الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٦٥.
- (١٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦٠٦/١.
- (١٣) الأفغاني: أسواق العرب / ٣٣١-٢٣٧-٢٥٩.
- (١٤) الزبيدي: تاج العروس مادة نخس.
- (١٥) ابن الأثير: أسد الغابة ٢/٢٢٤. الأفغاني: أسواق العرب ٣٣١.
- (١٦) السكري: شرح أشعار الهذليين ٣٧٣/١. ديوان الهذليين ٧٠-٧١/٣.
- (١٧) علي: المفصل ٤/٣٨٨-٥/٥٧٢.
- (١٨) البلاذري: أنساب الأشراف ١/٤٨٦-٤٨٧.
- (١٩) البلاذري: أنساب الأشراف ١/٤٨٠.
- (٢٠) ديورانت: قصة الحضارة ١/٣٦-٣٧. ترماني: الرق ٣٦.

- (٢١) علي: المفصل ١١٩/٤.
- (٢٢) الأزرقى: أخبار مكة ١٥٧/١.
- (٢٣) ابن هشام: السيرة ١٩٩/١. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٨٠/٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٣٩/٢. ابن كثير: البداية والنهاية ٢٩٣/٢.
- (٢٤) برمانيني: الرق ٧٩.
- (٢٥) ترماني: الرق ٧١.
- (٢٦) الزحيلي: آثار الحروب ٤٠٤.
- (٢٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦٢٥/١. ابن عبد ربه: العقد الفريد ٨٣/٦. الأصفهاني: الأغاني ٣٣٣/١٦. أبو عبيدة: النقااض ١٤٩/١. اليسوعي: شعراء النصرانية ٧٩. علي: المفصل ٣٥٢/٥.
- (٢٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٢٥/٢. فرمان: أسرى الحرب ١٠٤.
- (٢٩) اليسوعي: شعراء النصرانية ٤-٥. الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٦٥.
- (٣٠) ابن قتيبة: المعارف ٤٢. علي: المفصل ٤٦٧/٥.
- (٣١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥٥٣/١. أبو عبيدة: النقااض ٤٥/١. جاد المولى: أيام العرب ٩٩.
- (٣٢) عاقل: العصر الجاهلي ٢٥٩.
- (٣٣) نولدكة: أمراء غسان ١٨. عاقل: العصر الجاهلي ١٤٨.
- (٣٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥٥٥/١. الميداني: مجمع الأمثال، ٩/١. علي: المفصل ٢٥٠/٣.
- (٣٥) ديوان الخنساء ٨٧. القلقشندي: صبح الأعشى ٤٦٥/١. الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٦٧.

- (٣٦) الأصفهاني: الأغاني ٢٥٧/١٧. الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٦٧.
- (٣٧) الأصفهاني: الأغاني ٢٦٣/١٧. الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٦٧.
- (٣٨) أبو عبيدة: النقااض ١٩٨/١-١٩٩.
- (٣٩) الحوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي ٢٦٧.
- (٤٠) البغدادي: سبائك الذهب ٤٥٦. ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥٦/٦.
- (٤١) أبو عبيدة: النقااض ٧٦/١. ٨٠٩/٢. علي: المفصل ٣٦٧/٥-٣٦٨.
- (٤٢) علي: المفصل ٣٦٦/٥.
- (٤٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤٩/٦. علي: المفصل ٣٦٦/٥.
- (٤٤) ديوان الخنساء ٧٢. الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٦٧.
- (٤٥) أبو عبيدة: النقااض ٦٨/١-٧٦٢/٢.
- (٤٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦٤٩/١.
- (٤٧) ديوان لبيد ٢٥١. الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٦٧.
- (٤٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥٤٥/١. جاد المولى: أيام العرب ٥٥ وما بعد. علي: المفصل ٢٤٠/٣.
- (٤٩) ديوان حاتم: ٥٧. أبو عبيدة: النقااض ١٠٨٣/٢-١٠٨٤. جاد المولى: أيام العرب ١٠٢. علي: المفصل ٢٥٠/٣.
- (٥٠) أبو عبيدة: النقااض ٣٠٨/١-٣٠٩.
- (٥١) أبو عبيدة: النقااض ١٠٩٣/٢-١٠٩٤.
- (٥٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ١٢٣/٦. علي: المفصل ٦٤/٩.
- (٥٣) الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٦٨.

- (٥٤) الأصفهاني: الأغاني ٢٦٤/١٧. الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٧٠.
- (٥٥) فرحان: أسرى الحرب ١٠٥.
- (٥٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦٠١/١. اليسوعي: شعراء النصرانية ٢٥٨.
- جاد المولى: أيام العرب ٢٠٦. علي: المفضل ٣٦٨/٥.
- (٥٧) علي: المفضل ٦٣٢/٥.
- (٥٨) الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٧٠.
- (٥٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦٤٩/١. الحوفي: المرأة العربية من الشعر الجاهلي ٤٧٧.
- (٦٠) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦٣٩/١-٦٤٠. جاد المولى: أيام العرب ١٠٨. علي: المفضل، ٣٥١/٥.
- (٦١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥٨٥/١. علي: المفضل ٣٧٣/٥.
- (٦٢) الأصفهاني: الأغاني ٣٢٠/١٧. الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٧١.
- (٦٣) علي: المفضل ٥٨٥/٤.
- (٦٤) علي: المفضل ٦٣٢/٥. أبو عبيدة: النقائض ٣٧٩/١-٣٨٠.
- (٦٥) أبو عبيدة: النقائض ٨٨٢/٢.
- (٦٦) ديوان الشنفرى: ١٠-١١. الأصفهاني: الأغاني ١٧٩/٢١.
- (٦٧) علي: المفضل ٣٦٤/٣. فرحان: أسرى الحرب ١٠٦.
- (٦٨) القلقشندي: صبح الأعشى ٤٤٨/١.
- (٦٩) ديوان عروة بن الورد: ٥٧-٥٨. اليسوعي: شعراء النصرانية ٩١٠.
- (٧٠) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٨٤/٦.
- (٧١) أبو عبيدة: النقائض ٦٦٩/٢.

- (٧٢) عامر: أحكام الأسرى والسبايا ٧٠. ترماني: الرق ٣٩.
- (٧٣) ابن هشام: السيرة ٢/٢٥٢-٢٥٤-٢٥٥.
- (٧٤) الواقدي: مغازي الواقدي ١/١٧.
- (٧٥) ابن هشام: السيرة ٢/٣٧٢. البلاذري: أنساب الأشراف ٣٠٥-٣٠٦. ابن كثير: البداية والنهاية ٣/٣٦٥.
- (٧٦) سورة الأنفال: الآية ٦٧.
- (٧٧) سورة محمد: الآية ٤.
- (٧٨) أبو يوسف: الخراج ١٩٣.
- (٧٩) أبو يوسف: الخراج ١٩٦.
- (٨٠) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/٣٦٥. عامر: أحكام الأسرى والسبايا ١٤٥.
- (٨١) ابن هشام: السيرة ٢/٢٩٩. الواقدي: مغازي الواقدي ١/١١٨.
- (٨٢) زحيلي: آثار الحروب ٤٠٩. عامر: أحكام الأسرى والسبايا ١٤٥.
- (٨٣) علي: المفصل ٤/٤٦٤-٤٦٥. عامر: أحكام الأسرى والسبايا ١٤٦.
- (٨٤) ابن هشام: السيرة ٢/٢٩٩. الواقدي: مغازي الواقدي ١/١١٨. عامر: أحكام الأسرى والسبايا ١٤٦.
- (٨٥) سورة الإنسان: الآية ٨.
- (٨٦) ابن هشام: السيرة ٢/٢٩٩. الواقدي: مغازي الواقدي ١/١١٨.
- (٨٧) ابن هشام: السيرة ٢/٣٠٠.
- (٨٨) الواقدي: مغازي الواقدي ٢/٥١٤.
- (٨٩) ابن هشام: السيرة ٢/٣٠٤. البلاذري: أنساب الأشراف ١/٣٠٣.
- (٩٠) البلاذري: أنساب الأشراف ١/٣٠١.
- (٩١) ابن سلام: الأموال ١٧٨.
- (٩٢) ابن سلام: الأموال ١٧٨. عامر: أحكام الأسرى والسبايا ١٩٣.

- (٩٣) الواقدي: مغازي الواقدي ١/١٢٩.
- (٩٤) ابن هشام: السيرة ٢/٣٠٣. الواقدي: مغازي الواقدي ١/١٢٩. عامر: أحكام الأسرى والسبائا ١٩٢.
- (٩٥) ابن هشام: السيرة ٢/٣٠٠. الواقدي: مغازي الواقدي ١/١٤٠. عامر: أحكام الأسرى والسبائا ١٩٢.
- (٩٦) البلاذري: أنساب الأشراف ١/٣٠١. الواقدي: مغازي الواقدي ١/١٣٨-١٣٩.
- (٩٧) الواقدي: مغازي الواقدي ١/١٣٨-١٣٩.
- (٩٨) الواقدي: مغازي الواقدي ١/١٤١.
- (٩٩) الزحيلي: آثار الحروب ٤٥٦.
- (١٠٠) البلاذري: أنساب الأشراف ١/٣٠٣. الواقدي: مغازي الواقدي ١/١٤٢.
- (١٠١) الماوردي: الأحكام السلطانية ٥٠. ابن الأثير: أسد الغابة ١/٢٤٧.
- (١٠٢) البلاذري: أنساب الأشراف ١/٣٠١. الواقدي: مغازي الواقدي ١/١٣٨.
- (١٠٣) البلاذري: أنساب الأشراف ١/٣٠٢.
- (١٠٤) ابن الأثير: أسد الغابة ١/٢٤٧.
- (١٠٥) ابن هشام: السيرة ٤/١٣١-١٣٢. عامر: أحكام الأسرى والسبائا ٢٠٠.
- (١٠٦) أمين: فجر الإسلام ٨٨. الزحيلي: آثار الحروب ٤٤٥.
- (١٠٧) ابن هشام: السيرة ٤/١٣١.
- (١٠٨) عاقل وخماش: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى ٦٢.
- (١٠٩) ابن هشام: السيرة ٣/٣٥٢.
- (١١٠) ابن هشام: السيرة ٣/٣٠٧-٣٠٨.
- (١١١) البلاذري: أنساب الأشراف ١/٤٦٧ وما بعد. الزحيلي: آثار الحروب ٤٤٧.
- (١١٢) ابن هشام: السيرة ٢/٢٩٨. البلاذري: أنساب الأشراف ١/٢٩٨.

(١١٣) ابن هشام: السيرة ١١٠/٣. ابن حبيب: المحبر ٣٠٠. الماوردي: الأحكام السلطانية ١٣١.

(١١٤) ابن هشام: السيرة ٢٥٢/٣. ابن سلام: الأموال ١٩٢. عامر: أحكام الأسرى والسبايا ٢٠٣. عاقل وخماش: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى ٧٩.

(١١٥) ابن هشام: السيرة ٢٨٦/٣ وما بعد. الزحيلي: آثار الحروب ٤٣٤.

(١١٦) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٦٠/١. عامر: أحكام الأسرى والسبايا ٢٠٣.

(١١٧) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٠٣/١. أمين: فجر الإسلام ٨٦. فرحان: أسرى الحرب ١١٣.

(١١٨) الواقدي: مغازي الواقدي ١٠٥/١. عامر: أحكام الأسرى والسبايا ٢٠٣.

(١١٩) ابن هشام: السيرة ٢٨٢/٣. عامر: أحكام الأسرى والسبايا ٢٠٨.

(١٢٠) البلاذري: أنساب الأشراف ٢٩٧/١. عامر: أحكام الأسرى والسبايا ٢٠٨.

(١٢١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤٨٠/١.

(١٢٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ٥٣.